



الذاكرة الشعبية

قراءة اجتماعية لمصادر الوعي التاريخي المحلي
والمنتج الثقافي في الحياة اليومية للمجتمع السعودي



د. عبدالرحمن بن عبدالله الشقير



المضامين الاجتماعية في الجسد

يعد الجسد، نظافةً ورياضةً وتجميلاً، ظاهرةً اجتماعيةً مرتبطةً بمكانة الفرد في المجتمع، ومن ثمَّ يعد الجسد رأس مال اجتماعي وثقافي؛ لارتباطه الكبير بحسن تقديم الذات في الحياة اليومية، كما أن النظافة الجسدية والرياضة والتجميل طاقة روحية ومتنفس للفرد، ورياضة تعود على صاحبها بالمعنويات العالية والثقة بالذات.

الحيز الاجتماعي

قياس التحولات القيمة من خلال المسافات بين الأشخاص

المجتمع عبارة عن لوحة فسيفساء ضخمة، بها ملايين من الممارسات والأفكار التي تمثل القطع المتناهية الصغر، التي يتشكل منها المجتمع. وبالتالي يمكن أن تدرس التحولات القيمة في المجتمع من خلال التقاط العناصر الصغيرة والمتناثرة شكلياً، ولكن يجمع بينها جوهر واحد عميق. وتأتي هذه التحليلات لمحاولة إعادة فهم التحولات القيمة في المجتمع السعودي من خلال قيم الحيز الاجتماعي بأنواعه الأربعة، وهي: الحيز البصري، والحيز السمعي، والحيز اللمسي، والحيز الشمي. واستعنت بعدد من المصادر الاجتماعية، والملاحظة المباشرة لاستخدامات الحيز الاجتماعي في الحياة اليومية.

يتضمن الموضوع عرض مفهوم الحيز الاجتماعي وأهميته في وعينا بالحياة اليومية، ثم تمظهرات الحيز الاجتماعي وتحولاته في بعض المجالات، ثم دعوة لأن يؤخذ الحيز بعين الاعتبار في الاحكام القضائية والتشريعات والمراسم الدبلوماسية وقواعد الحياة اليومية وآدابها.

مفهوم الحيز الاجتماعي

الحيز الاجتماعي هو المسافة التي ينبغي تركها بين شخصين أو مجموعتين من الناس، لأسباب أخلاقية وقيمة واجتماعية. فالمسافة بين شخصين قد تقترب إلى 70سم أو تبتعد مترين، ويحكمها غالباً قيم متنوعة ومتناقضة، مثل: الحميمية والصدقة أو الرسمية، ومع الغرباء وذوي المكانة الاجتماعية. ويطلق

عليه إدوارد تي هول في كتابه: «البعد الخفي» مصطلح «البروكسيمية»، ويقصد به وصف المسافات القابلة للقياس بين الناس أثناء تفاعلهم بطريقة عفوية، ويعرفه بأنه يعكس مقولة الناس: قف بعيداً بحيث أستطيع أن أراك. وهي تعطي انطباعاً بأن الجلسة ينبغي أن تأخذ الصفة الرسمية، ومن ثم فإن طبقة الصوت سترتفع بشكل أعلى من المعدل الطبيعي في حال القرب⁽¹⁾، كما أنها تمنع التواصل بلغة الجسد ولغة العين؛ لتأثيرها المباشر على الشخص، ومنحه الحق الكامل في اتخاذ قراره دون تأثير غير رسمي. وقد كان موضوع الحيز الاجتماعي من المسائل التي تناقش بين العلماء المتخصصين، ثم أثرت على المستوى الصحفي في وسائل الإعلام الأمريكية مؤخراً عندما أشيع عن المترشح لرئاسة أمريكا جون بايدن بأنه يخترق حيز النساء الخاص، مما اضطره للاعتراف لوسائل الإعلام واعتذاره ووعدته باحترام المسافات الشخصية مع النساء (أبريل 2019).

يعود أصل الحيز الاجتماعي إلى الخصوصية الشخصية، ويرجع أصل الخصوصية إلى الكرامة واحترام الذات وحمايتها، ومن ثم فإن الحيز الاجتماعي يمثل خطأ أمامياً ينبغي حمايته من الإيذاء المعنوي. والملاحظ أن المجتمع يتصرف بتلقائية كبيرة مع الحيز الاجتماعي، ولا أقف على شيء من التراث الشعبي كالأمثال والأشعار العامية يؤكد عليها، وهذا يؤيد أنها عادات منغرسه في لاوعي المجتمع أكثر مما هي قيم اجتماعية ينبغي حمايتها، ومن ثم فإن رصد المواقف هو المادة الخام التي يمكن تحليلها.

يوجد تراث اجتماعي كبير متوارث وفقاً للعادات والتقاليد يحدد بأسلوب متعارف عليه ضمناً المسافات بين الأشخاص في المجالس والأماكن العامة والمناسبات الخاصة، ويحكم كل مسافة قواعد سلوك متبعة تخضع لظروف المناسبة. وتحتاج ظاهرة الحيز الاجتماعي إلى رصد مئات المواقف التي يتعرض فيها الحيز الاجتماعي للالتزام أو الاختراق، ومن ثم تحليل التفاعلات

(1) إدوارد تي. هول، البعد الخفي، ترجمة لميس فؤاد يحيى، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2007م، ص 167، 168.

الاجتماعية للتعامل مع اختراقات الحيز الخاص أو الحيز العام. ومن خلال ما جمعت من مواقف في الحياة اليومية، وهي قليلة مقارنة بالواقع، لاحظت أربعة أنواع من الحيز الاجتماعي هي الأكثر انتشاراً والتصاقاً بالمجتمع، والأشد تأثيراً، وهي: الحيز الديني، ويتمثل في تحديد المسافة بين الأشخاص في الصلاة. والحيز في الفضاءات العامة. والحيز المروري، ويتمثل في المسافة بين السيارات من خلال نظام المرور والواقع. والحيز العمراني ويتمثل في التحولات القيمة في عمارة المنازل.

الحيز في الصلاة

يمكن تقسيم الحيز في الصلاة إلى ثلاثة أشكال، هي: الصف في الصلاة، وصف السيارات في مواقف المسجد، وصف الأحذية في الأماكن المخصصة. إذ نلاحظ انضباطية كبيرة في الصف للصلاة، تتمثل في التراص الدقيق بالأجساد، وتوحيد الصفوف، وذلك لوجود نصوص دينية مترسخة في اللاوعي الجمعي، تؤكد على وجوب وحدة الصف لصحة الصلاة، مثل حديث: «تراصوا»، وحديث: «حاذوا بين المناكب والأقدام»، وحديث: «سوا الصفوف»، وهي الكلمات التي يرددها الأئمة مع كل صلاة قبيل تكبيرة الإحرام. وفي حالة وجود حيز لمكان شخص واحد أثناء الصلاة، سواء مع زيادة تراص المصلين أو خروج أحد منهم من الصلاة لأي سبب؛ فإن هذا الحيز يسد فوراً، إما بتراص المتجاورين أو تقدم شخص من الصف الخلفي لملء الحيز.

يبدو أن هذا الانضباط في الحيز المكاني في الصلاة متوارث بوصفه من العادات المترسخة في اللاوعي الجمعي، وليس تنفيذاً واعياً للسنة وتحقيقاً لشروط الصلاة وآدابها؛ وذلك لأن الشكليات الأخرين المتمثلين في صف الأحذية وإيقاف السيارات يشهدان فوضوية واختراق حيز الآخرين لدرجة الإيذاء المعنوي، وإفساد الروحانية؛ وذلك لأنه لم يرد فيها حديث صريح، ومن ثم فهي ليست عادات اجتماعية متوارثة، وإنما تركت لقواعد السلوك وآدابه العامة،

ومن يلتزم بضبط نفسه من حيث صف حذائه وإيقاف سيارته، فإنه ليس محصناً من اختراق حيزه الشخصي من خلال صف كمية أحذية في طريقه أو إيقاف مجموعة سيارات وحجز حيز سيارته. وهذا يكشف عن وجود بذور لسيادة «العقل النصي» في كثير من القيم والعادات الجديدة في الحياة اليومية.

الحيز في الفضاءات العامة

يخضع الحيز الاجتماعي في الفضاءات العامة لمستويات العلاقات والمكانات، ويتضح ذلك في مواقف الحياة اليومية، مثل: الشارع والعمل والأسواق والملاعب والاحتفالات والمجالس، ويحكم الالتزام بالحيز الاجتماعي عوامل ثقافية وأخلاقية وطبقية، ويشترط للتنازل عن الخصوصية والحيز الاجتماعي الشخصي في بعض الحالات وجود عنصر الثقة والأمان. وقد تحتم بعض الأماكن على الآخرين كسر الحيز الاجتماعي، مثل: المصاعد الكهربائية، وصالات الانتظار الصغيرة، والاصطفاف في الدور لدى بعض المتاجر، فيضطر الشخص إلى أن يتصرف تصرفات لا معنى لها بسبب عدم قدرته على تغيير الحيز، إذ نلاحظ أن كثيراً من الناس الغرباء إذا التقوا في المصعد الكهربائي يضطرون للنظر السقف أو الأرض أو الانشغال بالجوال لتلافي وقوع العين في العين وفتح حديث عابر لتمضية اللحظات القليلة.

كانت مجالس المنازل في السابق صغيرة وجلساتها على الأرض، والناس مضطرة للالتصاق ببعضها البعض، ويُحمى الحيز المكاني للشخصيات الاعتبارية بوضع مركى إلى جانبه، ليتكى عليه تكريماً له ولحفظ حيزه المكاني؛ لأنه إذا ارتكى على شقه الأيسر، وهذا هو التكريم الغالب؛ تمكن من أخذ فنجال القهوة بيده اليمنى دون أن يضطر إلى أن يتحرك بجسده، وتتيح له هذه الاتكأة أن يميل بجسده تجاه المركى، ويترك حيزاً بينه وبين من يجلس على يمينه. وقد حمت الكنبات في العصر الحديث الحيز الشخصي، وذلك بوضع حاجزين يحميان الحيز الشخصي بحيث يبدو وكأنه حاجز طبيعي وجمالي. كما أن مقدم

القهوة ملتزم بالحيز الاجتماعي عند صب القهوة والشاي ومناولتها للضيف، فالعادات الاجتماعية تحتم عليه ترك مسافة كافية، ومد يده بالفنجال إلى حدود طول يد الضيف تقريباً، وعدم الاقتراب أكثر من ذلك لحماية خصوصية الضيف ولضمان عدم اندلاق المشروب على ملابسه.

من أهم التحولات القيمية في الحيز الاجتماعي أيضاً إيجاد قيم جديدة للحيز بعد توسيع مجالات المرأة في الفضاءات العامة، بحيث تكون متقبلة ولكنها تفترض عدم وجود حميمية، وخاصة اللقاءات العابرة، مثل: الانتظام في صف واحد (طابور)، أو الحفلات الفنية والمهرجانات في الأماكن المفتوحة، مما أذاب الحيز الاجتماعي، وصار من المسموح به أن تقف الفتاة بجانب الشاب، سواء كان زميلاً أم غريباً، بمسافة تصل إلى 30سم وأقل، وهي مسافة تقل كثيراً عن المسافة المتعارف عليها قبل سنوات. كما صار من المتعارف عليه التحادث وجهاً لوجه، بعدما كانت التقاليد الاجتماعية تتطلب من الشاب أن يتحدث إلى المرأة وهو ينظر إلى الأرض. ويبدو أن ازدياد ظاهرة كشف وجه المرأة، وتغيير العباءات من السوداء إلى استخدام ألوان متنوعة ومفتوحة من الأمام، كما هو الحال في (مشالح) الرجال الرسمية، قد أسهم في تغيير الصورة النمطية عن المرأة.

تمثل حالة الطقوس الفنية الشعبية في المجتمعات التقليدية، مثل: التراص الجسدي في أداء العرضة، والسامري، وبقية الفنون الشعبية والفلكلور، السمة العامة للمجتمعات التي لم تعرف أي نمط من أنماط الحضارة، وتمثل الطقوس الرياضية المتمثلة في التشجيع الرياضي داخل الملعب في المجتمعات الحديثة عودة رمزية للمجتمعات البدائية التي تعتمد على بث الأهازيج وقرع الطبول لتخويف العدو (وهو هنا يمثل الفريق المنافس) بالكثرة وبالصوت الجماعي؛ لذلك فإن الناس محتاجون للتقارب الجسدي وإذابة الحيز في التفاعلات الفنية والرياضية، بشرط أن تكون رؤيتهم للحياة أو للحدث متوحدة ومتفقة.

الحيز في حركة مرور السيارات

من يطلع على أنظمة المرور سوف يلحظ بسهولة تأكيدات النظام على ترك مسافة كافية بين السيارتين، وعلى التزام السيارات بالمسارات المحددة لها، وعلى تنظيم أخلاقيات السرعة والتجاوز والوقوف، وقد وضعت هذه الأنظمة لأهداف أمن السيارات من الحوادث والتوقف المفاجئ، ولكن واقع كثير من السيارات الآن يدل على اعتداء ثقافي وأخلاقي فجّ، من خلال كثرة اختراقات حيز السيارات، وتعامل بعض السائقين مع أي فراغ باعتباره فرصة يجب ملؤها بسبب الازدحام وكثرة أوقات الذروة، وتتمثل في حالات مثل: الالتصاق بالسيارات الأمامية لتحفيزها على السرعة أو لفتح المجال لتجاوزها، بغض النظر عن السرعة المحددة في الطرق. والدخول المفاجئ للمسار الآخر مع وجود أحقية لسيارة أخرى. والبطء في السرعة لأسباب غير عقلانية، مثل: الانشغال بالجوال، أو تعلم القيادة للسائقين المتقدمين، أو بعض كبار السن. والوقوف عند إشارة المرور في المسار المخصص للعبور تجاه اليمين. والوقوف على خط المشاة. والوقوف العرضي في المواقف الطولية. والوقوف في مكان يتسع لسيارتين. وكلها حالات اختراق للحيز الاجتماعي تحفز الآخرين على حماية حيزهم، وهذا يجعل من الشوارع مجالاً خصباً للصراع الاجتماعي، والتوتر أو الجاهزية للصراع.

اللغة المتاحة بين السائقين هي استخدام الإضاءة العالية لإعلان الاحتجاج، أو استخدام المنبه للاحتجاج الأقوى، وقد تصل بعض الحالات إلى إمالة السيارة للتضييق على المخطئين. وهي محفزات للسائقين المتهورين للرد عليها، وبالتالي قد تنشأ مشكلات جديدة، تحمل معها شبكة من التفاعلات الاجتماعية في حال وقوع اصطدام متعمد؛ كالهرب، أو الاشتباك بالأيدي، فيتطلب الأمر استدعاء المؤسسة الأمنية والقضائية لحل النزاع، ومن ثم تكون هناك التزامات مالية أو حبس حريات.

جميع هذه الحالات تمثل اختراقاً للحيز الاجتماعي، حتى وإن كان

الشخص في سيارته وابتعد مسافة أمتار عن الأشخاص الآخرين الذين في سياراتهم؛ وذلك لأن السيارة تعد جزءاً من الحيز الشخصي، وينشأ شعور بالاشمئزاز من أي حالة اقتراب أكثر من المعتاد. ويستخدم في حركة المرور نوعان من الحيز الاجتماعي، هما: الحيز البصري، ويتمثل في توجيه نظرة احتقار أو احتجاج. والحيز السمعي، ويتمثل في الاستعمالات المفرطة للمنبه.

لقد أتاح تصميم سيارات قادمة من مصانع شرق آسيا، صغيرة الحجم وخفيفة الوزن ورخيصة السعر، فرصة ضخمة لتمكين الأسر من الطبقات المتوسطة والفقيرة إلى امتلاك سيارات بسهولة، وصار بإمكان كل شاب يبلغ من العمر 17 سنة تقريباً أن تكون له سيارته الخاصة به، بعد أن كانت الأسرة تشترك في سيارة أو سيارتين، وقد ملؤوا بها الحيز الاجتماعي بشكل غير مسبق، وهذا ضاعف من كمية اختراق الحيز السمعي والبصري في الشوارع، ويبدو أن سهولة امتلاك السيارات دون امتلاك القيم المرورية والاجتماعية التي صنعت من أجلها يعد أحد أبرز أسباب سوء استخدامها.

الحيز العمراني

يبدو أن توسع المدن الكبرى في المملكة يعود إلى أسباب نفسية واجتماعية، إضافة إلى الأسباب التقليدية، كزيادة عدد السكان والهجرات؛ وذلك لأن الناس قبل نصف قرن من الزمان كانوا يسكنون في بيوت صغيرة المساحة، وتشمل العائلة الممتدة، وهم الوالدان وأبناؤهم وزوجاتهم وأحفادهم، وكانت المنازل متلاصقة مع بعضها، والشوارع ضيقة، والنقل الجماعي - آنذاك - منتشر ومألوف، وقد كان يمثل فرصة لالتقاء الغرباء وجلس بعضهم بجوار بعض، وتمضية الوقت بالحديث في الشأن العام وغيره، ومن ثم فقد كانت الخصوصية التي تولد عنها الحيز الاجتماعي شبه مختفية من حياة الناس. وبعد زمن الطفرة الاقتصادية في بداية الثمانينيات، استوحش الناس من بعضهم، وحدثت تحولات قيمية كثيرة توسع من هيمنة الخصوصية والحيز

الاجتماعي، وبالتالي اتجه الناس للاستقلال بـ(فلل) خاصة بهم، كأسر نووية يكون فيها غرفة لكل فرد تقريباً، وإلى امتلاك سيارات خاصة لكل فرد تقريباً أيضاً، وهذا أضعف أهمية وجود وسائل النقل العام عند الطبقة الوسطى، ثم دخل تنظيم البناء بضرورة وجود حيز مكاني ببناء سور لا يقل عن 180 سم على موقع (الفيلا)، مما أدى إلى التوسع الحضري الكبير، ومن ثم ظهور أنماط جديدة من العمارة لتلبية الاتجاهات القيمة الجديدة، مثل: فلل الصغيرة «الدبلوكسات»، وزيادة عدد غرف النوم مع تقليل مساحتها. وذلك بهدف حماية الحيز الاجتماعي للأسرة بما في ذلك الحيز الصوتي الذي كان يصل للجيران في زمن البيوت المتلاصقة.

أما الحيز الشمي فقد كانت روائح الأجساد قبل عصر الحداثة تنتشر في المجالس القديمة، وأنفاس المتحدث تصل إلى وجه المستمع، ولم تكن هذه العادة من معييات قواعد السلوك وآدابه، بل كانت مما لا يؤبه له لشيوعه بين الناس؛ لعدم وجود تقنيات تبريد الهواء، ولانشغال المجتمع بمهن ميدانية في المزارع والسوق؛ ولهذا انتشرت ظاهرة تبخير الضيوف والمجالس والبيوت يومياً تقريباً.

يرى إدوارد تي هول أن العرب محبون للناس واللقاءات، ولا يوجد خصوصية لديهم، وينتشر عندهم المثل الشعبي: (جنة ما فيها ناس ما تنداس)؛ لذلك فإنهم يسعون لأكثر حيز في مساحات البيت والغرف، مقارنة بالأمريكيين، الذين يسكنون منازل صغيرة.

كانت الأسرة السعودية تفضل النزهة في البر والأودية لضمان حماية حيزها الاجتماعي لأكثر مسافة ممكنة، بحيث لا تقل المسافة التي تفصلها عن جيرانها عن خمسين متراً، ولكن لوحظ مؤخراً اتجاهها إلى الحدائق العامة بوسط المدينة، وتقبلها للحيز الاجتماعي بحدود خمسة أمتار، والسماح لأطفالهم باللعب المشترك مع غيرهم، وقد تكون هذه التحولات القيمة مرتبطة بتغير الأجيال، وانتشار أفكار تقبل الآخرين، وتوافر الخدمات الترفيهية في الحدائق.

وظهر شكل من تصميمات المنازل والمطاعم والمقاهي يراعي فصل الحيز البصري بين الرجال والنساء بطريقة جمالية، وباستخدام أشجار الزينة والتحف؛ لتبدو وكأنها عفوية وغير مقصودة، وقد أشار شاكر لعبيبي لهذه الظاهرة في كتاب: «العمارة الذكورية»، ولكن هذه الظاهرة أخذت تتلاشى مع منظومة التحولات التي تمر بها المملكة، وانخفاض مستوى الحساسية من الفصل بين الجنسين في الجلسات والطاولات. ويبدو أن السعوديين اتجهوا مؤخراً للمقاهي للترفيه والمذاكرة بالنسبة للطلاب، وعقد الاجتماعات واللقاءات الودية، بعد أن كانت المنازل تقوم بهذه الأدوار. وتشير تقارير وزارة التجارة إلى وجود ترخيص لأكثر من 22 ألف مقهى في كل من مناطق: الرياض، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والشرقية، وعسير.

يبدو أن المجتمع الجديد بدأ يرى في المقاهي حيزاً يمنحهم الحميمية والترفيه، وتقليص حيز المنزل ليكون مكاناً رسمياً للأسرة في أوقات ضرورية كالأكل والنوم والراحة. وقد نتج عن هذا سلوك جديد يتمثل في مشاهدة بعض مرتادي المقاهي مقاطع فيديو من الجوال مع إظهار الصوت ليسمعه الجالسون في الأماكن العامة، بوصفه نوعاً جديداً من اختراق الحيز السمعي، واعتداء على الذوق العام.

أخيراً

تبين من فكرة الحيز الاجتماعي المبني على تحديد المسافات بين الأشخاص والجماعات أنها تعد من أهم أنواع التواصل والاتصال الاجتماعي، ولها صلة كبيرة ومباشرة بمشاعر الإنسان، ولكل فضاء اجتماعي حيز اجتماعي، ولكل من أنواع الحيز دوافع، وبالتالي فهي صالحة لقياس تحولات المجتمع القيمة وتحديد المؤشرات التي تدل عليها. وتؤكد هذه النماذج عن الحيز أن الموضوع يحتاج جمع أكبر قدر ممكن من أنواع الحيز الاجتماعي؛ إذ يوجد أشكال من الحيز الاجتماعي ما تزال منغلقة على نفسها، ولم تفتح إلا بالحدود

الدنيا من التواصل، مثل: الحيز الاجتماعي المناطقي، والقبلي، والثقافي، والإيديولوجي، فكثير من هذه الجماعات لا ترغب في تحقيق التواصل الفعال مع غيرها، أو تشعر بأنها غير مرحب بها، أو تعيش حالة تصارع ثقافي، ومن ثم تكتفي بحماية حيزها الاجتماعي الخاص.